عار في الشرفة الشرقية

يعرف المشتغلون بالكتابة جيدًا أنّ شرارة من الواقع قد تتحول إلى نارٍ هائلة مكتوبة تلتهم أقلامًا من الحبر، وعشرات أو مئات من الصفحات البيضاء. وأنّ مشهدًا صغيرًا عابرًا قد يتحول إلى قصة حياة بأكملها أو رواية كبيرة.

ولأنّ سمر المنفلوطي التي اشتهرت في قريتنا بواقعة انتحارها كانت من الكتاب، ولأني أنا شاهد العيان الوحيد على الحقيقة، لأني طرفها الثاني؛ فإليكم تفاصيل الأحداث كاملة!

لم يصدق أحد في القرية بأن سمر المنفلوطي لم تخن زوجها، كما لم يتقبل أحد فكرة أن تكون لها صداقة بريئة ترتبط بالأدب مع الكاتب الثاني الذي كان طرفًا أساسيًا في قصتنا، والذي هرب رغم أن ليس له ذنب، تاركًا وراءه أبوين محطمين كان كل أملهما في الدنيا!

بتاريخ يوم 11 نوفمبر 2008، كانت سمر تطل من شرفة منزلها الشرقية عندما وقعت عيناها على منظر مبتذل وعادي في الشرفة الشرقية المقابلة! كانت الجارة انتصار حلمي، المتزوجة، وأم لأربعة أبناء، تجلس في شرفتها الرابعة فجرًا، مستعينة بإضاءة خافتة لإنعاش أحلامها وحالتها الحالمة، تنظر بدفء رومانسي إلى الأفق الذي حجبت معظمه تقاطعات الشوارع في القرية المتمدينة وعمارات سكانها، سارحةً بخيالها كأنها تفكر في حبيب.

ذلك المشهد التافه الذي ربما يمر على أي شخصٍ آخر غير سمر دون أن يكون له معنى ! ولكن وحدها ابنة المنفلوطي؛ قررت أن تصنع منه رواية عميقة عن خيانة زوجية وامرأة تقع في غرام صديق زوجها، ولكي تجعل المرأة تبوح بأشواقها وتبرر خيانتها بصورة جيدة، قررت أن تجعلها كاتبة حتى تتقن البوح عن انفعالاتها وأسبابها، كبطلة رواية الرباط المقدس لتوفيق الحكيم.

تأتيني سمر مساءً في الثامنة، تمكث عندي ساعة لتخبرني بمخططاتها وفرحتها الكبيرة بالعثور على حبكة محكمة لرواية جديدة. أنصحها ببعض التفاصيل هنا وهناك.

تقول لي: ولماذا لا تكتبها معي؟! تقترح أن يكون عملاً مشتركًا، "الأعمال المشتركة في الأدب نادرة ولهذا تلقى رواجًا أكثر من غيرها، كما أن التعاون قد ينجز عملاً رائعًا فهو يعود بالفائدة والثراء على العمل المكتوب" وأوافق فورًا بكل سرور، نتفق أن أكتب مشاعره هو وأتقمص صوته، رواية متعددة الأصوات، ستتولى هي صوت الخائنة، ثم سنتولى معًا في النهاية صوت الزوج المكلوم.

يتعثر على عتبة الباب وبالكاد ينقذ نفسه من السقوط، يأتيني هائمًا على وجهه هيمة الغضب والشك، يخبرني أنه لن يسامحني أبدًا" !اهدأ، أرجوك! من أدخل في عقلك هذه الترهات يا صديقي؟! "ينتشر في القرية خبر خيانتنا، مدعمًا بتردد سمر على منزلي وترددي على منزلها في غياب زوجها المشغول كثيرًا، الزيارات التي يعلم بها زوجها ويعلمها الجميع من قبل، تحولت مرفقة بأوراق المسودة التي لم تكتمل بعد حيث ينقصها صوت الزوج إلى دليل إدانة.

الصداع ينخر عظم رأسي، من سرقها من هنا؟! من يمكنه أن يفعلها؟ فعلة خسيسة! من أعطاها له، وصور له الأمر على هذا النحو؟ الشيطان يلعب في عقلي، يوسوس لي بنظرات زوجتي الهادئة اللابثة في الركن على المقعد؛ تتظاهر عن قصد بالانشغال بأعمال التطريز كأنّ الأمر لا يعنيها !

سأفعلها في الغرفة المقابلة للصالة، سأشنق نفسي، أنا طارق الخيام، الشاعر والروائي، سأعلن لكم بورقة اعتراف مكتوبة قبل موتي بأني بريء من

التهمة الموجهة إليّ، وبخصوص السيدة سمر فإنها بريئة أيضًا، تهمتي الحقيقية أني كاتب !

يعرف الجميع في القرية أننا أسرتان متحضرتان، أنا وصديقي يحيى نتميز بسعة الأفق، كيف يتصرف كشخصٍ متخلف هكذا؟! كيف يصور له عقله الذي ما لبث أن أصبح مريضًا بعد شكه هذا أوهامًا من هذا النوع؟ كيف يخلط الواقع بالوهم هو عاشق الأدب وقراءة الروايات!

أنظر إليها بكراهية، أريد أن أسحبها من شعرها فجأة، وأمسكها بعنف، وأنهرها صارخًا: كيف أصبحتِ غبية هكذا؟ زوجتي منذ عشر سنوات، كيف تسلل إليكِ شك مثل هذا ونسيتِ العشرة الجميلة بيننا، أتغارين من سمر الأديبة التي قدمتِ لها بنفسك فناجين القهوة مرات ومرات، واستقبلتِها في بيتنا بالترحاب؟!

أقترب منها قليلاً، تخور قواي في منتصف الطريق، عند مترين يفصلانني عنها أغير خطتي فجأة وأصرخ قائلاً: هيا، بسرعة، سوف نهرب من هنا !

سيرتي يلطخها عار ذنبٍ لم أرتكبه، أرحل تاركهما خلفي يشكان بالأمر مثل الجميع، تتبعني أخبار سمر لاحقًا؛ قيل أنها قد شنقت نفسها، وقيل أن زوجها قد تحول إلى وحش فتكفل وحده بالمهمة! ولعنة لن تنتهي ما دمت حيًا أكتب، فشخصيتي هي ما أكتبه من وجهة نظرهم !

أقف ساخطًا على البشر والحياة، وأنظر إلى الشرفة الشرقية المقابلة لشرفة مسكني الجديد، لأرى شيئًا ما هناك!